

الفنان التشكيلي يوسف عبدلكي في معرض له بدمشق بعد غياب ربع قرن: إعادة المعنى إلى الأشياء المهملة في الحياة!

12/05/2005

ابراهيم حاج عبيد

بعد غياب ربع قرن في المنفى، يعود الفنان التشكيلي السوري يوسف عبدلكي إلى وطنه حاملاً أشواقه، وهمومه، وخيياته، ولوحاته ليحضر افتتاح معرضه المقام حالياً في خان أسعد باشا بدمشق.

غادر عبدلكي سوريا في العام 1980 واختار العيش في المنفى الباريسي بعد أن منع من العودة على خلفية مواقفه السياسية، وأثر الفنان المولود في مدينة القامشلي (شمال شرق سوريا) سنة 1951، أن يعيش بعيداً عن الأهل، والأقارب، والأصدقاء محاولاً نسيان التجربة المريرة التي تعرض لها في بلاده إذ اعتقل بين العامين 1978 و1980 م، واستطاع فعلاً التغلب على الظروف الصعبة، فأكمل في باريس دراساته العليا إذ حاز على دبلوم حفر من المدرسة الوطنية العليا للفنون الجميلة في باريس العام 1986 م، ثم نال الدكتوراة في الفنون التشكيلية من جامعة باريس الثامنة نهاية الثمانينات، وكان قد تخرج من كلية الفنون الجميلة بدمشق سنة 1976 م.

أقام الفنان معارض فردية عدة في مختلف عواصم ومدن العالم منذ العام 1973 وحتى اللحظة، فإضافة إلى بعض المدن السورية فقد شهدت عواصم، ومدن أخرى معارض له مثل القاهرة، وتونس، وعمان، وبيروت، ودبي، وصفاقس، والمنامة، وباريس، والإسكندرية، والكويت... وغيرها، كما شارك في معارض جماعية في بغداد، وبرلين، وباريس، والقاهرة، ولندن، وبيروت، وتايوان، وهامبورغ، وجنيف، والشارقة وغيرها... واشترك الفنان في تظاهرات الرسوم الساخرة في كابروفو في بلغاريا، وكنوك هيست في بلجيكا، ومونتريال في كندا، وأبينال في فرنسا، وهافانا في كوبا، ولشبونة في البرتغال، وميلانو في إيطاليا، واسطنبول في تركيا... وتقتني لوحاته أهم متاحف الفن في العالم مثل المتحف البريطاني، ومتحف معهد العالم العربي في باريس، ومتحف ديني لي بان في فرنسا، ومتحف عمان للفن الحديث، ومتحف الكويت.

ويعمل عبدلكي منذ العام 1968 في مجالات جرافيكية متعددة، وقام بتصميم عشرات الملصقات وأغلفة الكتب، والشعارات، كما نشرت رسوماته وأعماله الكاريكاتورية في مجلات وصحف عديدة، عربية وعالمية، منها الموقف العربي، ولومانيته، والقدس العربي، والشروق، والخليج، والنهار... وسواها، وصدرت له بعض الدراسات، منها «تاريخ الكاريكاتير في سوريا» العام 1975 م، و«دراسة عن رسامي الكاريكاتير العرب وتقنياتهم» العام 1989 م.

رحلة حافلة بالفن والأمل

ثمة تراجيديا مؤلمة في حكاية عبدلكي الذي خرج من وطنه مرغما، لا يحمل في حقيبته سوى دفاتر الخيبة، والأمل الذي ينير دروب المستقبل المعتمة، غير أن طموحا جبارا كان يقبع خلف تلك الملامح الهشة البريئة التي احتفظت برائحة الياسمين الدمشقي، وبوجوه الأصدقاء الذين كانوا على موعد مع معارضه التي كانت تقام في صالة الأتاسي بدمشق في غياب الفنان الذي لم يكن قادرا على المجيء كي يستطلع الوجوه والأمكنة التي تركها في مدينته الأسرة دمشق. بقي هناك بعيدا وكان دائما لديه كما يقول نزيه أبوعفش «ما يحمله، ويعيش لأجله. ودائما كان لديه ما يكفي من زوادة الزاهد، الحكيم، الصارم والمتطلب: عابد الفن».

رغم المراتب الكثيرة ظل عبدلكي في غربته الموحجة تلك حاملا، شغوبا بنار الإبداع التي تحرق. بقي كالفراشة المولعة بالنار كي يعرف سر هذا النور الخالد، وفي ظل الخيبات، والأوجاع قلما يواصل الفنان مسيرة الإبداع، ونادرا ما ينساق وراء الأحلام حين تتحول إلى كوابيس في الليالي الطويلة، لكن عبدلكي وكما يقول أبوعفش مرة أخرى «استطاع أن يفعل. وعلى أي حال: ثمة في تاريخ الأحلام تاريخ الفن والشعر والموسيقى وغيرها أسماء كثيرة لأناس امتلكوا الشجاعة الفنية نفسها، والشجاعة الروحية نفسها، وشجاعة تقديس قيم الفن نفسها. كثيرون وكثيرون كان الفن الخالص هاجس حياتهم، أو ربما هاجس موتهم (موزارت، فان كوخ، رامبو... الخ) كانت أصابعهم أصابع أرواحهم قادرة في أشق الظروف، على حلم ذلك الكمال... وعلى ملامسته أيضا».

لم يستطع عبدلكي بلوغ الكمال، فلا أحد يستطيع ذلك، لكنه حقق نجاحات باهرة، واحتل مكانة بارزة في مجال الفن التشكيلي على مستوى العالم. نال الكثير من الجوائز، وحظي باحتفاء، وتكريم عز نظيره. وسمع كثيرا كلمات المديح والإطراء... بيد أن هذه الشهرة التي حققها بالجد والإيمان لم ينتزع من قلبه لهفة الشوق، فكان سؤال العودة إلى مدينته، وأهله، وأصدقائه يؤرق هدأته، ويقلص من مساحة الفرح الناقص بعيدا عن وطنه الذي رفض أن يقبل أي جواز سفر آخر على جوازه السوري رغم حرمانه منه لسنوات طويلة.

وهو يعتبر هذه العودة، التي تحققت الآن، لحظة استثنائية في حياته، فهي إيدان بانتهاء حقبة ثلاثة من محطات العمر، المحطة الأولى كانت في مدينة القامشلي وامتدت منذ الولادة سنة 1951 م وحتى العام 1966 م حين جاء إلى دمشق لتبدأ المحطة الثانية التي امتدت حتى العام 1980 م عندما غادر هذه المدينة إلى محطته الثالثة باريس التي استقر فيها ربع قرن إلى أن عاد مرة أخرى إلى دمشق لتكون لحظة العودة محطة رابعة حاسمة في حياته. يصف عبدلكي مشاعر العودة فيقول «هي لحظة عاطفية حاسمة في حياتي، تلك اللحظة التي وطأت فيها أرض البلد» (هو يفضل تعبير البلد على تعبير الوطن لأن الأخير قد شوه كثيرا نتيجة التوظيف الخاطيء)، ويضيف الفنان الذي شبه عودته، مجازيا، بعودة أوليس إلى إيثاكا: «عدت بعد غياب طويل إلى المدينة التي تشكل فيها وعبي الثقافي، وتشكلت فيها علاقاتي بمجمعي في مرحلة الشباب، وحسمت فيها خياراتي المهنية والفنية، وفيها تبلورت موافقي السياسية التي طبعت بقية حياتي وأظن أنها ستطبع، هكذا أعود إليها وكأنني أعود إلى الرحم الحقيقي الذي خرجت منه»، ولدى سؤاله عن الفروقات بين دمشق التي كانت تعيش في خياله، وبين ما رآه فيها على أرض الواقع ابتسم عبدلكي قائلاً

«لا اعتقد ان أسبوعين (عاد في 19/4/2005) يكفيان لأن أتعرف على ملامح الحياة والفن في دمشق، أنا احتاج إلى مزيد من الوقت كي أستطيع تقييم ما هو موجود على ارض الواقع على صعيد الفن، والسياسة، والناس».

زهرة تبحت عن غصن

في معرضه المقام في خان أسعد باشا والذي ينظمه غاليري الأتاسي، والمستمر حتى نهاية شهر أيار الجاري، بدأ عبدلكي في حفل الافتتاح هادئاً، مطمئناً، ودوداً يعرب عن امتنانه وشكره للضيوف ويرحب بهم، مثلما يرحبون به، بابتسامة حيية هادئة لا تني تفارق وجهه الذي حفرت السنوات في ملامحه خطوطاً تشي بسنوات الحنين، والحرمان، وهذا ما انعكس في اللوحات المعروضة المرسومة بقلم الفحم باللونين الأبيض، والأسود وتدرجاتهما.

ضيوف كثر توافدوا إلى المعرض الذي حمل بعداً سياسياً فضلاً عن البعد الفني، ففي غياب الحضور الرسمي إذ لم تشر مطبوعات المعرض إلى «رعاية وزارة الثقافة» كجهة رسمية كما هو الحال بالنسبة لجميع المعارض الفنية التي تقام في سوريا، كان ثمة حضور مكثف للأدباء، والفنانين والشعراء، والسياسة، والإعلاميين، ومحبي الفن التشكيلي، ومن الأسماء البارزة حضر الشاعر العراقي مظفر النواب، والقاص زكريا تامر، والشاعر نزيه أبوعفش، والشاعر عادل محمود... وبعض رموز المعارضة السورية ممن يتفوقون مع عبدلكي في الرأي والموقف، فضلاً عن جمهور كبير قلما تجد مثله في معارض الفن التشكيلي.

يضم المعرض مجموعة من اللوحات المنفذة بتقنية واحدة هي «فحم على ورق» لكنها متباينة في الحجم إذ يصل قياس بعضها إلى حوالي المترين ونصف المتر، وباستخدامه اللونين الأبيض، والأسود فقط يجد الزائر مهارة في قدرة هذا الفنان على تقديم لوحة بالغة الإتقان، عالية الدقة، رفيعة المستوى.

وبعيداً عن الجانب التقني فان عبدلكي يعيد المعنى إلى تلك الأشياء المنسية والمهملة في الحياة، يرصد كل ما يوحي بالتعاسة والألم، ليرسم عالماً سوداويًا يستحضر الفنان من خلاله مفردات وعناصر تحرض على الأسئلة الحائرة: رأس سمكة مقطوع أو موضوع في صندوق مغلق، أحذية سوداء كبيرة، أغصان ذابلة مرمية على قارعة النسيان، مزهرية مكسورة في فراغ شاسع، عظام لجماجم وأضلاع بشرية، أصداف، أباريق، وكؤوس... وغيرها من الأشكال التي يضعها عبدلكي في لوحته، بصمت مدو، ضمن فراغ موحش، وفي غياب متعمد لمن يستخدمها: أي الإنسان، إذ لا توجد وجوه لبشر في لوحة عبدلكي سوى تلك الوجوه التي تراقب اللوحة من الخارج (زوار المعرض) وتحاول بذهول أن تقرأ المعاني الكامنة خلف خطوطها الرقيقة، وأشكالها الغريبة.

هي ذي مفردات عبدلكي في اللوحة: زهرة يتيمة تبحت عن غصن، حذاء امرأة غائبة يتوهم الزائر اكتمال حضورها الجسدي، صدفة تستحضر زرقة البحر، كأس فارغة تبحت عن الندامى الغائبين.. وغيرها من الأشياء التي جمعها عبدلكي بحنو بالغ، وبحس رهيف ليبحت لها عن ضوء وسط هذا السواد، عن مكان يليق بضعفها، وهامشيتها... وهو

بارع في جدلية الظل والنور، مثلما هو بارع في رسم الخطوط الرقيقة في خلفية اللوحة التي يتصدرها في المنتصف شكل هو أقرب ما يكون إلى النسيان، والعزلة، والغياب.. «إيماءة شجن لا يمكن نسيانها أيضا، يلف بها عبدلكي ببراعة، ذلك الثبات التعيس والمشحون للأشياء البسيطة» على حد قول الكاتب المصري عادل السيوي الذي يضيف «في لوحات عبدلكي تتكثف ملامح الشيء بقوة داخل جسده، كأنه هو كل شيء، ولا شيء حوله سوى الفراغ، كائن أنبثق في الفراغ وحده، أو كأن أبطاله في تأكيدهم لحضورهم وتفصيلهم المضيئة، يفضحون الخواء المحيط بهم، أو يوظرون بالفراغ غربتهم، ويتركون لنا فقط، شيئا من الظل، هنا وهناك».

حارب عبدلكي لسنوات طويلة كل أشكال القمع، والطغيان، والاستبداد عبر الحفر، والكاريكاتور، والرسم، والكتابة... امتلأت لوحات السابقة بوجوه، ودمى، وخيول.. بمشاهد، ورموز، وتفصيل من الشرق الحزين، فتح معارك اللون على اتساعها وراح يوثق لصنوف الاستبداد في لوحة انطوت على مشهدية بصرية حافلة بالصخب، والصرخات، والأنين... وحين أمن أن اللوحة أضعف من أن تحقق تلك الأحلام العريضة القريبة من اليوتوبيا، وحين أدرك أن اللوحة أكثر هشاشة من تويجات وردة... طرح سؤاله المعذب: أنى للوحة القدرة على تحقيق العدالة في هذا العالم!! فلم يجد جوابا مقنعا!! عندئذ راح الفنان يبحث عن أشياء البسيطة، ولم يعد يثقل لوحته بتلك الأيديولوجيا الرامية إلى تطهير هذا العالم من الدنس... هجر مسرح المعارك، والمواجهات متسلحا بالخبرات والمعارف، أهمل التفاصيل وتبنى الاختزال، والاختصار. تخلى عن كل ما يعكر صفو اللوحة بالضجيج والفوضى، وبدأ يلتقط، بهدوء وأناقة، حركة غصن، صمت مزهرية، وضالة حذاء... وغيرها من المفردات المماثلة منحاذا إلى الإنسان، رهانه الأوحده، دائما. رهان على العدالة والجمال في مواجهة الفظاعة والقبح، وهو رهان خاسر كما يقول أبو عفش! ولكن من قال ان الفن يراهن على الفوز؟؟ فالفن ليس إلا صوت أحلامنا الخائبة.